الإحماض في مقامات الحريري دراسة في المفهوم والوظيفة والأداء

د. بوحوش مرجانة
جامعة العربي بن مهيدي - أم البواقي

ملخص:

النصوص المقامية تتحكم في شعريتها جملة من العناصر والبُنى الملزمة، شأن ثنائية المنظوم والمنثور، وثنائية الحكاية والرواية. إلا أن "الحريري" أضاف عنصرا جديدا لشعرية مقاماته هو عنصر الإحماض. حاول من خلاله أن يؤسس لاستراتيجية جديدة في الكتابة الإبداعية، وفتح أفق جديد أمام المتلقي بُغية تنشيطه واستمالته، بل استفزازه. وذلك بوضعه أمام الشيء وضده (الجد والهزل)، (المضحك والمبكي) في النص المقامي الواحد. تنضاف إلى هذه الوظيفة وظيفتان هما: الوظيفة الدفاعية لما تعرض له من اضطهاد فكري واتهامه بالمروق عن الدين. والوظيفة البلاغية من خلال انفتاح نصوصه المقامية على مختلف الأنواع السردية والأجناس الأدبية.

وتجليات الإحماض حاولنا ملامستها بالوقوف مع ثلاثة مستويات هي: المستوى الموضوعاتي والمستوى الأسلوبي وأخيرا المستوى الأجناسي.

مقدمـــــة:

إن إنتـاج النصـوص المقاميـة مرهـون بجملـة مـن القـوانين الكليـة، هـذه القـوانين مـتى تحكمـت في النصـوص وتـواترت فيهـا ولـدت شـعريتها. مـن هـذه العناصـر الثابتـة والبـنى الملزمـة في المقامـات عامـة، ومقامـات "الحريـري" خاصـة، عنصـر الإحمـاض ولعـل أهميـة هـذا العنصـر وراء التصـريح بـه في ملفوظـات الخطـاب المقـدماتي يقـول "الحريـري (ت515هـ)": "ومـا قصـدت بالإحمـاض فيـه، إلاّ تنشـيط قارئيـه، وتكثـير سـواد طالبيـه..."[1] أيّ حـاول أن يؤسـس لاسـتراتيجية جديـدة في الكتابـة الأدبيـة، "وفـتح أفـق جديـد أمـام القـارئ، قصـد تنشـيطه، وتحريـك مخيلتـه. وذلـك بوضـعه أمـام ثنائيـات متناقضـة"[2]. أي الارتقـاء بـالمتلقي والخـروج بـه مـن دائـرة القـراءة الأحاديـة ذات الدلالـة المتشـابهة الـتي ألفهـا في النصـوص الشـعرية؛ حيـث تبـنى القصـيدة علـى نسـق واحـد (الجـد أو الهـزل، المقـدس أو المـدنس، الزهـد أو المجـون) فمـا إن يـذكر (زهـير بـن أبي سـلمى أو حسـان بـن ثابـت أو أبـو تمـام) حـتى تحضـر في ذهـن المتلقـي معـاني السـمو والرفعـة والطهـر والفتـوة والحماسـة. ومـا إن يـتردد اسـم (أبـو دلـف الخزرجـي، وابـن سـكرة الهـاشمي، وابـن الحجـاج...) إلا وطافـت بمخيلـة المتلقـي، معـاني السـخف والهـزل والملـح والظـرف... يخـرج مـن هـذه الـدائرة إلى دائـرة القـراءة الثنائيـة مـن خـلال هتكـه للحـدود الفاصـلة بـين الجـد والهـزل، أو بـين المضـحكات والمبكيـات في الـنص الواحـد. بـل وبـاختراق الأنـواع وكسر الهوة الفاصلة بينها.

فمـا المقصـود بالإحمـاض؟ ومـا هـي وظائفـه الفنيـة؟ ومـا هـي تجلياتـه في مقامات "الحريري"؟ هذه الأسئلة هي التي نتغيّ الإجابة عنها في مقالنا هذا.

---

[1]- الحريري، (القاسم بن علي)، المقامات، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1978، ص 12.

[2]- أبلاع محمد عبد الجليل، شعرية النص النثري، شركة النشر والتوزيع، المدارس، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2002، ص64.

أولا: المفهوم (الإحماض ودلالة المصطلح):

جاء في اللّسان: الحمض من النبات: كل نَبْتٍ مالح أو حامض، والجمع الحُمُوض. قال الراجز:

يَرْعَى الغَضَا مِنْ جَانِبَيْ مُشْفِقٍ غِبًّا وَمَنْ يَرْعَ الحُمُوضَ يَعْفِقِ

أي يرد الماء كل ساعة.

وحَمَضت الإبل تحمُض حَمْضا وحُموضا: أكلت الحمضَ، فهي حامضة.

وتحمض الرجل: تحول من شيءٍ إلى شيءٍ. وأحمضه: حوله.

قال الطرماح:

لا يَنِي يُحْمِضُ العَدُوَّ وذُو الخُلْ لة يُشْفَى صَدَاهُ بِالإِحْمَاضِ"[1]

ويشرح "الشريشي" الإحماض فيقول: "هو الانتقال من شيء إلى شيء، وأصله في الإبل ترعى الخلة، وهي حلو المرعى فتملّه، فتنتقل إلى الحمض تأكل منه فيذهب الحمض عن قلوبها استيلاء الحلاوة، فتنشط بذلك على الرعي. فيقال أحمض الرجل إحماضا، والعرب تقول: الخلة خبز الإبل، والحمض فاكهتها..."[2].

فالإحماض بمعنى الانتقال والتحول من الحلو إلى المالح أو الحامض، وأن الإبل إذا أحمضت ازدادت نشاطا وحيوية. وهي المعاني التي أرادها "الحريري" من خلال الإحماض بالمتلقي في مقاماته. أي الانتقال به من

---

[1]- ابن منظور، لسان العرب، مادة (حمض)، دار المعارف، طبعة جديدة منقحة، الجزء الثاني، ص 997.

[2]- الشريشي (أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي)، شرح مقامات الحريري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة العربية الحديثة، الجزء الأول، ص 32.

"حكاية فائقة إلى قضية رائقة، ومن موعظة تبكي إلى ملهية تسلي"[1]، حتى ينشط المتلقي ويذهب عنه الملل والسأم.

ويروى "أن ابن عباس (ت68هـ) كان إذا جلس مع أصحابه حدثهم ساعة ثم قال حمضونا..."[2] أي بعد الخوض في الكتاب والسنة والفقه والمسائل ينتقل بأصحابه من هذا الحلو إلى الحامض ليروح عنهم. وقال علي بن أبي طالب: "روحوا القلوب واطلبوا لها طرف الحكمة، فإنها تمل كما تمل الأبدان"[3]. أي أن الإحماض فيه جلاء للقلوب وشد للهمم.

إن استراتيجية الإحماض بارزة في كثير من المدونات العربية القديمة، بل إن وعي السلف بهذا النسق في الكتابة، أرقى وأرسخ من وعي كثير من الخلف، فهم أكثر انفتاحا وأقل تطرفا منا.

فالجاحظ (ت 255هـ) أسس كتابه (الحيوان) على هذه الإستراتيجية، بل صرّح بها في قوله: "إن المزاح جدٌ إذا اجتلب ليكون علّة للجد. وإن البطالة وقار ورزانة إذا تُكلفت لتلك العاقبة..."[4].

فالخروج من الجد إلى الهزل فعل مقصود، لأن به يروح القلب ويجلي صدأ الأذهان، وهو الوسام الذي وشح به "المسعودي" كتب الجاحظ: "وكتب الجاحظ تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان... وكان إذا تخوّف ملل القارئ وسآمة السامع، خرج من جد إلى هزل، ومن حكمة

---

[1]- المصدر نفسه، الجزء2، ص 32.

[2]- ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمان بن علي)، أخبار الحمقى والمغفلين، تحقيق عزيزة نوال بابتي، دار الكتاب العربي، بيروت، 2005، ص 26.

[3]- المصدر السابق، ص 24.

[4]- الجاحظ (أبو عثمان بن عمرو بن بحر)، الحيوان، تحقيق/عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الأولى، 1938، الجزء الأول، ص 37.

بليغة إلى نادرة طريفة..."[1]. ولعل سحر التنوع والتنوّاب وإشاعة الدعابة والفكاهة والهزل في كتابات الجاحظ هو الذي وسّع جمهور المتلقين لمؤلفاته سواء في عصره أو في العصور التي توالت بعد ذلك، ومن منا لا يذكر مقولة ابن العميد لأبي القاسم السيرافي: "كتب الجاحظ تعلّم العقل أولاً، والأدب ثانيا".

وعلى درب الجاحظ سار كثير من العلماء والأدباء والفلاسفة في القرون الأولى، فـ"أبو حيان التوحيدي" الذي خص لياليه -في الإمتاع والمؤانسة- للفلاسفة والمفكرين والأدباء. والبحث في الروح والعقل والقضاء والقدر وما إلى ذلك، فكان يدون في كل ليلة ما دار فيها بينه وبين الوزير أبي عبد الله العارض الذي سامره أبو حيان على طريقة قال لي وسألني: وقلت له وأجبته. كان بعد الغوص في معتاص القضاء والقدر أو الروح والعقل يحمض في آخر الجلسة من خلال ملحة الوداع "فيقول الوزير -مثلا- إن الليل قد دنا من فجره، هات ملحة الوداع. وهذه الملحة تكون -عادة- نادرة لطيفة أو أبياتا رقيقة، وأحيانا يقترح الوزير أن تكون ملحة الوداع شعرًا بدويا يشم منه رائحة الشيح والقيصوم وهكذا..."[2]. بل إنه بعد سبع عشرة ليلة من المسامرة في جد القول وجادته، أحمض في الليلة الثامنة عشرة. قال: "تعال حتى نجعل ليلتنا هذه مجونية، ونأخذ من الهزل بنصيب وافر، فإن الجد قد كدّنا، ونال من قوانا، وملأنا قبضا وكربًا. هات ما عندك..."[3]، ثم أخذ يعدد مشاهد هزلية، وأخرى مجونية. ولعل حصافة التوحيدي وشعوره بأن يفهم كلامه على غير محمله هو الذي جعله يؤكد في

---

[1]- المصدر نفسه، الصفحة 09، من مقدمة المحقق.

[2]- أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، الجزء الأول، الصفحة (ن) من مقدمة المحقق.

[3]- المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص 50.

آخر الليلة: "... وربما عيب هذا النمط كل العيب، وذلك ظلم، لأن النفس تحتاج إلى بشر، وقد بلغني أن ابن العباس كان يقول في مجلسه بعد الخوض في الكتاب والسنة والفقه والمسائل: احمضوا، وما أراه أراد بذلك إلاّ تعديل النفس لئلا يلحقها كلال الجد، ولتقتبس نشاطا في المستأنف..."[1].

فهذا النمط الخطابي المغاير للمألوف لم يفقه المتأخرون للأسف ومنهم محقق هذا الكتاب الذي أوشك على تشويه هذه الاستراتيجية الكتابية بقوله في هامش الليلة الثامنة عشرة: "ويلاحظ أن المؤلف قد أتى في هذه الليلة ببعض من المجون الساقط والنوادر المبتذلة، ولولا الأمانة العلمية والإخلاص للتاريخ لحذفنا أكثرها واكتفينا بما لطف ورق لم ينب عنه الذوق"[2].

وإن لم يفعلها محققا الإمتاع والمؤانسة (أحمد أمين وأحمد الزين)، فإن محمد عبده شارح مقامات الهمذاني قد فعلها -للأسف- بحذفه للمقامة الشامية وجمل من المقامة الرصافية يقول في مقدمة المقامات: "إن في هذا المؤلف من مقامات البديع رحمه الله افتنانا في أنواع من الكلام كثيرة ربما كان منها ما يستحي الأديب من قراءته، ويخجل مثلي من شرح عبارته، ولا يجمل بالسذج أن يستشعروا معناه، أو تنساق أذهانهم إلى مغزاه وأعوذ بالله أن أرمي صاحب المقامات بلائمة تنقص من قدره، أو أعيبه بما يحطُّ من أمره. ولكن لكل زمان مقال، ولكل خيال مجال. وهذا عذرنا في ترك المقامة الشامية، وإغفال بعض جمل من المقامة الرصافية"[3] ولو أخذنا بهذا المنطق لحذفنا كثيرا من المقامات الهمذانية

---

[1]- المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص 60.

[2]- المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص 50.

[3]- محمد عبده: مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1965، ص02.

والمقامات الحريرية، لأنها لا تتخلف عن مضامين المقامة الشامية، "وهذا مثال صارخ عن التشويه الذي يتعرض له تراث فكري"[1].

نعود إلى مقامات الحريري لنقول إن الإحماض الذي تتغيّ به تنشيط قارئيه، وتكثير سواد طالبيه. قد تتحقق بالفعل "فقد ذكروا أن الحريري وقع بخطه في شهور سنة أربع عشرة وخمسمائة على سبعمائة نسخة"[2] وهو عدد ضخم، بل إن طلبة العلم انكبوا على حفظها كحفظ السورة من القرآن الكريم فقد أحصى صاحب كشف الظنون أكثر من خمسة وثلاثين شارحًا[3] وهذا ما جعل ياقوت الحموي ينعتها نعتا بليغا في قوله: "ووافقه من السعد ما لم يوافق مثله كتاب، فإنه جمع بين حقيقة الجودة والبلاغة واتسعت له الألفاظ وانقادت له وفور البراعة... حتى لو ادعى بها الإعجاز لما وجد من يدفع في صدره ولا يردّ قوله، ولا يأتي بما يقاربها فضلا أن يأتي بمثلها..."[4] فجعلت مقاماته مقامات الهمذاني نسيا منسيا، فلم يعد الطلبة يذكرون غير مقامات الحريري، ولم يعد الأدباء يحاكون غير الحريري، ومنهم أبو الطاهر محمد التميمي السرقسطي المتوفى (538هـ) الذي أنشأ خمسين

---

[1]- عبد الفتاح كليطو، المقامات (السرد والأنساق الثقافية)، ترجمة عبد الكريم الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء)، الطبعة الأولى، 1993، ص 41.

[2]- الشريشي، شرح مقامات الحريري، الجزء الأول، ص 03، (من كلام المحقق محمد أبو الفضل إبراهيم).

[3]- ينظر، مصطفى بن عبد الله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، المجلد الثاني، طبع بعناية وكالة المعارف، 1943. الصفحة 1787 إلى 1790، منها شرح علي بن عبد الله الحلي، وابن حميدة، ابن المظفر، علي بن الحسن الحلبي، الشهاب الحجازي، عبد الله بن الحسين العكبري، والمطرزي، وأشهرهم عبد المؤمن القيسي المعروف بالشريشي.

[4]- ياقوت الحموي (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله)، معجم الأدباء. المعروف بإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، اعتنى بنسخه وتصحيحه د.س. مرجليوث، مطبعة هندية بالموسكي، بمصر، الطبعة الثانية، 1930، الجزء السادس، ص 170.

مقامة وهي ما تعرف بالمقامات اللزومية[1]، وابن الجوزي، وابن الصقيل الجزري وابن الوردي والسيوطي وغيرهم.

والآن نسدلف مقامات الحريري بغية استنباط وظائف الإحماض؛ كما نحاول تتبع تجلياته في مقاماته الخمسين.

ثانيا: وظائف الإحماض: إن الإحماض نمط خطابي مغاير تغتني به الحريري لاستمالة المتلقي وشده إلى قراءة مقاماته، وهي الوظيفة المصرح بها في خطابه المقدماتي، تنضاف إلى هذه الوظيفة، وظيفتان لم يصرح بهما الحريري، وهما الوظيفة الدفاعية، والوظيفة البلاغية، ونسلك في الحديث عن الوظائف هذه التراتبية:

1- الوظيفة الدفاعية: إن الاضطهاد الفكري الذي تعرض له الحريري بسبب مقاماته، واتهامه بالمروق عن تعاليم الدين، لم يجد له من مقاومة غير الاحتماء بدرع الإحماض، فهو يستحضر -كما استحضر التوحيدي- ترجمان القرآن (ابن عباس)، الذي نص على شرعية الهزل بعد الجد في قوله "احمضوا" وهذا بعد الخوض في الكتاب والسنة ومسائل الفقه. والاتهامات التي لحقته لم تصدر للأسف إلا من رجلين، رجل جاهل يعيب ما لا يفهم، ورجل حاقد حاسد يحول الحسن إلى قبح، يقول: "على أني وإن أغمض لي الفطن المتغابي، ونضح عني المحب المحابي لا أكاد أخلص من غمر جاهل، أو ذي غمر متجاهل، يضع مني لهذا الوضع، ويسدد بأنه من مناهي الشرع"[2].

---

[1]- السرقسطي (أبو الطاهر محمد بن يوسف)، **المقامات اللزومية**، حققها وعلّق على حواشيها حسن الوراكلي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، الطبعة الثانية، 2006.

[2]- الحريري، المقامات، ص 13.

ومثل هذه الاتهامات عادة ما تلاحق المدونات والمؤلفات الأدبية والفكرية، قال أبو عمرو بن العلاء: "الإنسان في فسحة من عقله، وفي سلامة من أفواه الناس، ما لم يضع كتابا أو يقول شعرا"[1] فكيف إذا كانت الحال مع مقامات خلط فيها صاحبها بين الجد والهزل، وكان ينتقل فيها من المضحكات إلى المبكيات، حيث "الطريق قصير بين المسجد والحان"[2]. التناوب والتحول والإحماض يعد لازمة من لوازم البنية القولية في النص المقامي، وهو ما صرح به المؤسس الأول لفن المقامات -الهمذاني- في المقامة الخمرية: "وعدت بين جدي وهزلي"[3]، وكيف أن "عيسى بن هشام" وإخوان الخلوة ينتقلون في الليلة الواحدة من السبح[4]. إلى منادي الصبح: "ولما مسّتنا حالنا تلك دعتنا دواعي الشطارة، إلى حان الخمارة والليل أخضر الديباج، معتلم الأمواج، فلما أخذنا في السبح، ثوب منادي الصبح، فخنس شيطان الصبوة وتبادرنا إلى الدعوة، وقمنا وراء الإمام قيام البررة الكرام"[5].

كما استند الحريري في دفاعه عن مقاماته إلى أدب العجماوات "ومن نقد الأشياء بعين المعقول، وأنعم النظر في مباني الأصول، نظم هذه المقامات، في سلك الإفادات، وسلكها مسلك الموضوعات، عن العجماوات والجمادات"[6]. أي جعل مقاماته من المتخيل السردي وأراد من المتلقي ترك مطابقة سلوك بطلها مع الواقع والبحث في العبر والدروس

---

(1)- الشريشي، شرح مقامات الحريري، الجزء الأول، ص 28.

(2)- عبد الفتاح كيليطو، المقامات، ص37 .

(3)- الهمذاني، المقامات، ص 239.

(4)- السبح: السير إلى الخمارة؛ وسُمي سيرهم سبحًا لأنه في الليل المخيل في مثال البحر، ومنادي الصبح: المؤذن لصلاة الصبح.

(5)- الهمذاني: المقامات، المقامة الخمرية، ص 240.

(6)- الحريري، المقامات، ص 41.

نستفادة من سيرته، وهو ما أقره الشارح الكبير الشريشي في قوله: "أراد ما ألف من الكتب مما لا حقيقة له في الظاهر، وقد ضمّن الحكم الشافية في الباطن، مثل كتاب كليلة ودمنة وغيره مما ألف على ألسنة ما لا عقل له ولا روح، وكذلك المقامات، وإن كان ظاهرها كذبا، فالقصد بها تمرين الطالب وتهذيبه وتذكية عقله. وأن يكتسب تجارب الدنيا من حكايات السروجي... إلى ما ينضاف إليه من تعليم صنعة الكتابة والشعر"[1].

فالحريري يحتمي بالشّرع للدفاع عن شرعية مقاماته، فمقصده ونيته أن ينحا بالمتلقي منحى التهذيب لا الأكاذيب، وأن الملح التي أنشأها هي ملح للتنبيه، لا للتمويه، فهو يرضى ويكفيه "أن يخرج من هذا الكتاب كفافا لا أجر ولا وزر" -على حدّ قول الشريشي- الذي يرجو له الأجر على نية الإفادة والتعليم، ولعل حرص "الحريري" على أن توضع مقاماته في أنساقها الثقافية والاجتماعية، وألاّ تفهم على غير ما يراد لها، هو ما دفعه في خاتمة مقاماته إلى الاستغفار والتضرع إلى العليم القدير: "وأنا استغفر الله تعالى مما أودعتها من أباطيل اللغو، وأضاليل اللهو، واسترشده إلى ما يعصم من السهو، ويُحظى بالعفو إنه أهل التقوى والمغفرة".[2]

وبهذا ينزع عنه تهمة المروق عن الدين التي حاول ذو غمر اتهامه بها. كما نلمح في شرح الشريشي إشارة إلى الوظيفة البيداغوجية لمقامات الحريري وهي تعليم الناشئة صناعة المنظوم والمنثور، ولعل هذا هو المبرر وراء تضمين الحريري مقاماته بـ(1162 بيتا) وهذا الوابل الشعري كله من إنشائه إلا أربعة أبيات هي من الأشعار الأجنبية: "ولم أودعه من الأشعار الأجنبية إلا بيتين قدّين أسست عليهما المقامة الحلوانية، وآخرين توأمين ضمنتهما خواتم

---

[1]- الشريشي، شرح مقامات الحريري، الجزء الأول، ص 44.

[2]- الحريري، المقامات، الجزء الخامس، ص 378.

المقامة الكرجية"[1]، إلى جانب المنظوم ضمّنها فنون القول المنثور (الخطابة، الوصية، الأخبار، القصص، الألغاز، الأمثال) أي وفّر خزانة أدبية متنوعة لتعليم طلبة العلم.

وهكذا تبقى مقامات الحريري رغم ما لحقها من اتهام واضطهاد علامة مائزة في تاريخنا الأدبي.

أُقْسِمُ بِاللهِ وآيَاتِـــهِ وَمَشْعَرِ الحَجِّ وَمِيقَاتِـــــهِ
أَنَّ الحَرِيرِيَّ حَرِيٌّ بِـأَنْ نَكْتُبَ بِالتِّبْرِ مَقَامَاتِـــــه
مُعْجِزَةٌ تُعْجِزُ كُلَّ الوَرَى وَلَوْ سَرَوا فِي ضَوْءِ مِشْكَاتِهِ[2]

2- الوظيفة التأثيرية: هذه الوظيفة تؤكد على حضور المتلقي في مخيلة الناص (الحريري)، واهتمامه به، فلولاه ما كان الإحماض: "وما قصدت بالإحماض فيه، إلاّ تنشيط قارئيه، وتكثير سواد طالبيه"[3]، وهي الوظيفة المصرح بها في الخطاب المقدماتي.

فالإحماض سبيل من سبل غواية المتلقي وجعله شغوفا بمفاتن اللغة الحريرية، فحتى يشد أزر المتلقي، وينفي عنه الملل والسأم بنى مقاماته على شعرية التحول والانتقال من الجد إلى الهزل، ولله در القائل:

أُرَوِّحُ القَلْبَ بِبَعْضِ الهَزْلِ تَجَاهُلاً مِنِّي، بِغَيْرِ جَهْـلِ
أَمْزَحُ فِيهِ، مَزْحَ أَهْلِ الفَضْلِ وَالمَزْحُ أَحْيَانًا جَلاَءُ العَقْلِ[4]

فالهزل جد، إذا اجتلب ليكون علة للجد كما قال الجاحظ من قبل.

---

[1]- المصدر السابق، الجزء الأول، ص 12.

[2]- الشريشي، شرح مقامات الحريري، الجزء الأول، ص09 .

[3]- الحريري، المقامات، ص 12.

[4]- ابن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، ص26 .

جاء في شرح الشريشي منفوض الإحماض في الخطاب المقدماتي للحريري، قوله: "أراد به تنقله في المقدمات: من حكاية فائقة، إلى قضية رائقة، ومن موعظة تبكي إلى ملهية تسلّي، وفي ذلك تنشيط وترغيب في قراءتها، ونفي الملل والكسل عن قارئها..."[1].

ومن تجليات هذا التحول والإحماض ما جاء به في المقامة التنيسية[2]، فالبطل "السروجي" يظهره الحريري في صدر المقامة في صورة شيخ وقور يعظ الناس "وهو يقول بجأش مكين، ولسان مبين، مسكين ابن آدم وأي مسكين، ركن من الدنيا على غير ركين، واستعصم منها بغير مكين، وذبح من حبها بغير سكين... لو عقل ابن آدم، لما نادم، ولو فكر في ما قدّم، لبكى الدم، ولو ذكر المكافأة، لاستدرك ما فات...".

يَا وَيْحَ مَنْ أَنْذَرَهُ شَيْبُـــهُ وَهْوَ عَلَى غَيِّ الصِّبَا مُنْكَمِشْ
يَعْشُو إِلَى نَارِ الهَوَى بَعْدَمَا أَصْبَحَ مِنْ ضُعْفِ القُوَى يَرْتَعِشْ

فلما فرغ من ميكياته... لحقه الراوي "الحارث بن همام" فقال له السروجي: هل لك في ابتدار البيت لتنازع كأس الكميت (الخمر)، فقلت له: ويحك أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم، فافتر افترار المتضاحك، ثم قال له:

إِصْرِفْ بِصَرْفِ الرَّاحِ عَنْكَ: الأَسَى وَرَوِّحِ القَلْبَ وَلاَ تَكْتَئِبْ
وَقُلْ لِمَنْ لاَمَكَ فِي مَا بِـــهِ تَدْفَعُ عَنْكَ الهَمَّ: قَدْكَ اتَّئِبْ

ومثل هذه المشاهد كثيرة ومتعددة في مقامات الحريري مترجاه منها أن يحمض بالمتلقي دفعا لمله وسأمه، خاصة وأن الأدب والإقبال عليه قد ضعف وقلّ مريدوه "الأدب الذي ركدت في هذا العصر ريحه وخبت

---

[1]- الشريشي، شرح مقامات الحريري، الجزء الأول، ص 32.

[2]- الحريري، المقامات، المقامة التنيسية، ص 331 إلى 336.

مصابيحه"[1]، وهو تعبير بليغ وتوصيف دقيق حال الأدب. هذا التردي والاضطراب "الريح القادرة على بعث الروح فيه ليست سوى المقامة"[2]: وهذه الريح حتى لا تخمد وتفتر طعَّمها بالإحماض والتحول من المضحكات إلى المبكيات، ومن الجدِّ إلى الهزل، كما جعلها تنفتح على مختلف مجاري الخطاب من شعر وخطب ووصايا، وألغاز وأمثال، وأخبار...الخ.

3- الوظيفة البلاغية: إن التحول والانتقال من المنثور إلى المنظوم في مقامات الحريري، وجمعه لأنواع أدبية متعددة في نصوصه المقامية (الشعر، الخطابة، الوصية، الأخبار، القصص، الألغاز اللغوية والفقهية)، وتوشيح عباراته بالحكم والأمثال وآيات الذكر الحكيم كل هذا الجمع هو تأكيد للكفاءة البلاغية، وأن الحريري لم يكن يقطف في ضرب من ضروب البلاغة وفي الآخر يقف. فجاءت مقاماته كما قال ابن خلكان مشتملة "على شيء كثير من كلام العرب، من لغاتها وأمثالها، ورموز أسرار كلامها، ومن عرفها حق معرفتها استدل بها على فضل هذا الرجل وكثرة اطلاعه، وغزارة مادته"[3] بهذا الجمع كان أحد أئمة عصره، وبمقاماته نال الحظوة التامة والبلاغة الكاملة التي أقرّها أستاذه الأول الهمذاني هذا الأخير الذي أسس لطريقة جديدة في الكتابة الفنية وهي الجمع بين المنظوم والمنثور والإجادة فيهما، من خلال نقده لبلاغة الجاحظ "إن الجاحظ في أحد شقيّ البلاغة يقطف، وفي الآخر يقف، والبالغ من لم يقصر نظمه عن نثره ولم يزر كلامه

---

[1]- المصدر نفسه، ص 11.

[2]- الإدريسي (رشيد، سيماء التأويل، (الحريري بين العبارة والإشارة)، شركة النشر والتوزيع، المدارس، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2000، ص 137.

[3]- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن أبي بكر)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1948، الجزء الثالث، ص 227.

بشعره"[1] فجاءت مقامات الحريري مطابقة للتصور الهمذاني، فنال بها درجة الامتياز، ومن تم فالتحول والانتقال من المنظوم إلى المنثور، ومن اللطائف الأدبية إلى الأحاجي النحوية هو تأصيل وتأكيد على قدراته البلاغية والأسلوبية، كما تظهره هذه التنويعات (الأمثال، الآيات، الألغاز، اللطائف، الأحاجي، الرسائل، الخطب) على أنه قوي الذاكرة موسوعي الثقافة الأدبية، حاد العقل، سريع البديهة.

ثم إن هذه الكفاءة البلاغية ارتقت إلى درجة الإعجاز على حد تعبير ياقوت الحموي: "لو ادعي بها الإعجاز لما وجد من يدفع في صدره ولا يرد في قوله، ولا يأتي بما يقاربها فضلا أن يأتي بمثلها..."[2].

ومن ثم فحضور النصوص القديمة بوفرة في مقامات الحريري، هي ظاهرة صحيحة مستساغة في الأدب الكلاسيكي: "فالكاتب ينبئ عن فضله بوفرة وتنوع استشهاداته، ويعاتب إذا لم يتمثل بكلام غيره"[3] ولهذا كثر الحديث في البلاغة العربية عن الاقتباس والتضمين والاستشهاد والسرقات الأدبية المحمودة والمذمومة فالحريري وافق بذلك النّسق الثّقافي السّائد في عصره.

ولو لم يكن هذا غرضه لما صرح بذلك في خطابه المقدماتي وأكد على حضور شعرية التحول في مقاماته يقول: "أنشأت خمسين مقامة تحتوي على جد القول وهزله، ورقيق اللفظ وجزله، وغرر البيان ودُرره، وملح الأدب ونوادره إلى ما وشحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات،

---

[1]- الهمذاني، المقامات، ص 114.

[2]- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، الجزء السادس، ص 170.

[3]- عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة (دراسات بنيوية في الأدب العربي)، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة العاشرة، 2013، ص 87.

ورصعته فيها من الأمثال العربية واللطائف الأدبية والأحاجي النحوية والفتاوي اللغوية[1]. والرسائل المبتكرة والخطب المحبرة والمواعظ المبكية والأضاحيك الملهية" هذا الخليط الأجناسي والتنوع الأدبي والانفتاح النصي، اختزله الحريري في مصطلح واحد هو الإحماض، وهو الذي نتتبع تجلياته بالوقوف مع ثلاثة مستويات، هي المستوى الموضوعاتي، والمستوى الأسلوبي، وأخيرًا المستوى الأجناسي.

ثالثا: مستويات الإحماض:

1. المستوى الموضوعاتي: يتأسس بناء المقامات الحريرية على نمط خطابي مخصوص، قوامه التنوع والتحول من موضوع إلى آخر، أيّ لم يرتب -الحريري- مقاماته ترتيبا تشابهيا، كأن يجعل المقامات الأدبية هي الأولى، ولما ينتهي من موضوعاتها ينتقل إلى المقامات الزهدية، وهكذا، إنما رتبها بناء على قاعدة التحول والانتقال، بحيث جعل: كل مقامة سادسة أدبية، وكل أولى عشر زهدية، وكل خامسة وعاشرة هزلية، بغية استمالة المتلقي، وسحره بشعرية التحول والانتقال من موضوع إلى آخر، فينشط قراء المقامات الحريرية، ويكثر سواد طالبيها.

إذن ترتيب المقامات الحريرية لم يكن ترتيبا عشوائيا، إنما يخضع لاستراتيجية كتابية تغيّاها الكاتب، وهي التي وصفها في خطابها المقدماتي بـ"الإحماض"، ونتتبع الموضوعات لندرك شعرية التحول في النص المقامي الحريري.

فالموضوعات المركزية في مقامات الحريري؛ هي: الموضوعات الأدبية، والموضوعات الزهدية، والموضوعات الهزلية.

---

[1]- الحريري، المقامات، ص12 .

أ- **الموضوعات الأدبية**: توزعت على ثماني مقامات، هي:

- المقامة السادسة (المراغية): وتسمى أيضا الخيفاء تتضمن الرسالة التي إحدى كلماتها معجمة والأخرى مهملة، أبرز فيها بطله السروجي على أنه فارس فرسان البراعة والبلاغة الذي ما إن فرغ من إملاء رسالته، حتى أرضته الجماعة فعلا وقولاً وأوسعته حفاوة وطولاً.

- المقامة الثانية عشرة (الدمشقية): تتضمن كون أبي زيد السروجي خفيراً[1]. وأنه خفر القافلة بدعوات لُقّنها في المنام "فسأخفركم بما يسرو روعكم؛ ويبدو طوعكم... وزعم أنها كلمات لقنها في المنام ليحترس بها من كيد الأنام"[2]. فكانت كلماته واقية، راقية باقية على حد تعبير الراوي، فيها من سحر البيان ومعتاص الكلام ما جعل المرافقين له في سفره يقول على لسانهم الراوي: "فتلقناها حتى أتقناها وتدارسناها لكي لا ننساها"[3].

- المقامة الثامنة عشرة (السنجارية): وتتضمن قصة أبي زيد مع جاره النمام؛ في هذه المقامة يظهر الحريري بطله على أنه أعجوبة الزمان المشار إليه بالبنان في البيان، الذي يسرد لأصحابه مشاهد من سيرة جاره النمام، وما غشيه من همّ وغم، فصار يتشاءم من الزجاج المخصوص بهذه الطباع الذميمة، وبه يضرب المثل في النميمة.

- المقامة الرابعة والعشرون (القطيعية): وتتضمن إلقاء أبي زيد على جلسائه مسائل ملغزة (مقفلة) في النحو، (اثنتا عشرة مسألة وفق عدد الحضور)، ولما عجزوا كشف حينئذٍ من أسرار ألغازه وبدائع إعجازه.

---

[1]- الخفير: الذي يصحب الناس في المخاوف ليجيرهم ويحميهم منها.

[2]- الحريري، المقامات، ص 97.

[3]- المصدر نفسه، ص 100.

– المقامة الثلاثون (الصورية): تتضمن كون أبي زيد خطيبا في تزويج مكدية لمثلها (ألقى خطبة عصماء، كاملة البناء).

– المقامة السادسة والثلاثون (الملطيسة): تتضمن حديثه مع ذوي الشمائل الأدبية وتعريفهم بمعالم شعرية الأحجية، ثم أفاض عليهم من بدائعه وأحاجيه، ولما عجزوا عن فكّها أخذ في تفسيرٍ صقل به الأذهان.

– المقامة الثانية والأربعون (النجرانية): عاد فيها إلى الألغاز مرة أخرى لأنها تسلي عن الأشجان.. فعوض السروجي بضاعته وبقي ينتظر إلى أن "طال الأمد، وحصحص الكمد... ثم فتح الأقفال ورسم الأغفال"[1].

– المقامة الثامنة والأربعون (المرامية): (وهي أول مقامة أنشأها الحريري) يسأله الناس عن كلامه الملغز، وخطابه الموجز، فيحكي لهم غريبة من غرائبه.

تصور معي –أيها القارئ– لو أن الحريري رتب هذه المقامات، وجعلها متتابعة، ألا يشعر متلقيها بالملل ويراوده الفتور والإعراض عن تلقيها؟! إن الفصل بين هذه المقامات، وجعلها في المرتبة السادسة بعد كل خمس مقامات هو إيغال في الإحماض والتحول بالمتلقي من موضوع إلى آخر.

ب– الموضوعات الزهدية: وهي المقامات الأولى في كل عشر مقامات، أيّ المقامة الأولى والحادية عشرة، والواحدة والعشرون والواحدة والثلاثون والواحدة والأربعون والمقامة الخمسون. فالمقامة الزهدية هي العتبة للولوج إلى المجموعات على اعتبار أن كل مجموعة تحوي عشر مقامات.

---

[1]– المصدر السابق، ص 344.

– المقامة الأولى (الصنعانية): يظهر فيها بطله السروجي وعليه "أهبة السياحة، وله رنة النياحة، وهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه"[1].

– المقامة الحادية عشرة (السّاوية): تتضمن وقوف أبي زيد بالمقابر واعظا، ذكر فيها الغافلين بما ينتظرهم من وحشة القبر.

– المقامة الحادية والعشرون (الرازية): يظهر فيها بطله في صورة "شيخ قد تقوس واقعنسس، وتقلنس وتطلس، وهو يصدع بوعظ يشفي الصدور ويلين الصخور"[2].

– المقامة الحادية والثلاثون (الرملية): تتضمن وعظ أبي زيد للحجاج في حال مسيرهم وكونه حج في ذلك العام ماشيا.

– المقامة الحادية والأربعون (التنيسية): تتضمن قيام أبي زيد واعظا وقيام ابنه طالبا وكيف عطف الناس أبا زيد على ابنه.

– المقامة الخمسون (البصرية): تتضمن توبة أبي زيد وتوبة نصوح ولزومه المسجد وقد لبس الصوف، وأمّ الصفوف، وصار بها الزاهد الموصوف.

إن هذا الفارق السوقي بين المقامات الزهدية (بين المقامة والأخرى تسع مقامات) يؤكد على اهتمام "الحريري" بالمتلقي، وحضور هذا الأخير، ورعاية مشاعره وهو يرتب مقاماته، فلو جعل المقامات الزهدية متتابعة وجعلها الأولى في الترتيب العام، لتحولت مقاماته إلى سفر من أسفار الصوفية، وكتاب من كتب تزكية النفس، وعندها لا يضمن بقاء المتلقي مشدودًا إلى مقاماته. وحتى ينشطه حرص على هذا التحول والانتقال من

---

[1]– المصدر نفسه، ص 16.

[2]– المصدر نفسه، ص 168.

موضوع إلى آخر، بل حرص على الإحماض والانتقال من الجد إلى الهزل، ومن المضحكات إلى المبكيات في هذه المقامات التي عددناها، المستثنى منها فقط هو المقامة الأخيرة البصرية التي خلت من الوعظ المغشوش، أما باقي المقامات، فعادة ما ينتقل "الحريري" من زواجر الوعظ إلى مواطن اللهو، كما في المقامة الصنعانية. فما إن انتهى أبو زيد من وعظه الزاجر حتى تبعه الراوي "الحارث بن همام" إلى بيته فوجده "مثافنا لتلميذ، على خبز سميذ، وجديّ حنيذ، وقبالتهما خابية نبيذ"[1] وهذا الوعظ المغشوش المنتشر في مقاماته، هو إعلان صريح عن نقد الحريري لواقعه الاجتماعي الذي لم ينزل أهل الفضل من العلماء والبلغاء منزلتهم، فحولوا الوعظ إلى أحبولة لجلب القنيص (الصيد الذكر) والقنيصة (الصيد الأنثى)، ولو أنصف الدهر في حكمه ما سلكوا هذا المسلك:

وَلَوْ أَنْصَفَ الدَّهْرُ فِي حُكْمِهِ لمَا مَلَّكَ الحُكْمَ أَهْلَ النَّقِيصَهْ[2]

جـ- الموضوعات الهزلية: وعددها تسع مقامات، بحيث جعل كل مقامة خامسة وعاشرة مقامة هزلية، مع تنوع في مشاهد الهزل فيها:

- المقامة الخامسة (الكوفية): تتضمن وقوف أبي زيد بباب بيت يطلب منه القرى ومجاوبته له، كما أطرف الحضور بغريبة من غرائب أسماره، وعجيبة من عجائب أسفاره.

- المقامة العاشرة (الرحبية): تتضمن دعوى أبي زيد على غلام مليح أنه قتل ابنه وترافعا إلى قاضي البلد.

- المقامة الخامسة عشرة (الفرضية): تتضمن أن أبا زيد عرض عليه لغزا في مسألة فرضية (المواريث) فحلّه وأظهر سره، ونال مبتغاه.

---

[1]- المصدر السابق، ص 19.

[2]- المصدر نفسه، ص 20.

- المقامة العشرون (الفارقية): تتضمن طلب أبي زيد تكفين ميت، وهو في الحقيقة أحبولة نصبها وأكذوبة تكذّبها.

- المقامة الخامسة والعشرون (الكرجية): يظهر فيها أبو زيد شيخا عادي الجلدة، يطلب من أهل الثراء من يستره بمطرف (رداء)، "فلما فتن قلوب الجماعة، بافتتانه في اليراعة ألقوا عليه من الفراء المغشاة والجباب الموشاة"[1].

- المقامة الثلاثون (الصورية): وهي مقامة أدبية وهزلية، أدبية في لغتها وجمال خطبتها وهزلية في مشاهدها.

- المقامة الخامسة والثلاثون (الشيرازية): تتضمن أن أبا زيد رب بكرًا وطنب ما يجهزها به وفيها "فجر من ينابيع الأدب والنكت النُخب ما جلب به بدائع العجب، واستوجب أن يكتب بدوب الذهب"[2].

- المقامة الأربعون (التبريزية): تتضمن تخاصم أبي زيد وزوجته عند القاضي وأخذها منه دينارين، "فأرحني من هذين المهذارين واقطع لسانهما بدينارين"[3] وهذه المقامة بالضبط احتوت على مشهد مسرحي كامل البناء، وقد قام "جابر فقيمة" بتحوير هذه المقامة "فعدت مسرحية قصيرة تتوفر على المعايير الفنية للنص المسرحي"[4].

- المقامة الخامسة والأربعون (الرملية): وفيها يستجدي السروجي، من خلال مخاصمته لزوجته.. فيقع قاضي الرّملية -وكان من أرباب الدولة

---

[1]- المصدر السابق، ص 203.

[2]- المصدر نفسه، ص 287.

[3]- المصدر نفسه، ص 330.

[4]- علي عبد المنعم عبد المجيد، النموذج الإنساني في أدب المقامة، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الأولى، 1994، ص48.

والنصوبة- في أحبولة من حبائل أبي زيد ولم يجد بدًّا غير الإقرار والاعتراف: "قاتله الله فما أحسن شجونه، وأملح فنونه"[1].

هذه المقامات الهزلية عادة ما تتعقبها مقامات زهدية؛ شأن المقامة العاشرة (الرحبية) مقامة هزلية، والمقامة الحادية عشرة (الساوية) مقامة زهدية، وكذا المقامة العشرون (الفارقية) هزلية، والمقامة الحادية والعشرون (الرملية) زهدية، وكذلك بين المقامة الثلاثون (الصورية) هزلية، والمقامة الحادية والثلاثون (الرملية) زهدية، والمقامة الأربعون (التبريزية) هزلية، والمقامة الحادية والأربعون (التنيسية) زهدية. هذا التحول والانتقال والإحماض من الجد إلى الهزل تغياه الحريري بغية تنشيط قارئ مقاماته، فالنفس تملّ الجد، فينحو بها منحى الهزل.

وحتى يدرك القارئ هذا التحول الموضوعاتي في مقامات الحريري، وأنه معلم من معالم شعرية النص المقامي، نضع بين يديه هذا الجدول ليدرك كيف كان الانتقال من الجد إلى الهزل ومن المضحكات إلى المبكيات:

ترتيب المقامة	اسم المقامة	موضوع المقامة
■ المقامة الأولى	الصنعانية	زهدية
■ المقامة الخامسة	الكوفية	هزلية
■ المقامة السادسة	المراغية	أدبية
■ المقامة العاشرة	الرحبية	هزلية
■ المقامة الحادية عشرة	الساوية	زهدية
■ المقامة الثانية عشرة	الدِّمشقية	أدبية
■ المقامة الخامسة عشرة	الفرضية	هزلية
■ المقامة الثامنة عشرة	السنجارية	أدبية
■ المقامة العشرون	الفارقية	هزلية

[1]- الحريري، المقامات، ص 374.

■ المقامة الحادية والعشرون	الرّازية	زهدية
■ المقامة الرابعة والعشرون	القصْبية	أدبية
■ المقامة الخامسة والعشرون	الكرجية	هزلية
■ المقامة الثلاثون	الصورية	أدبية/هزلية
■ المقامة الحادية والثلاثون	الرملية	زهدية
■ المقامة الخامسة والثلاثون	الشيرازية	هزلية
■ المقامة السادسة والثلاثون	المَلَطية	أدبية
■ المقامة الأربعون	التبريزية	هزلية
■ المقامة الحادية والأربعون	الرملية	زهدية
■ المقامة الثانية والأربعون	النجرانية	أدبية
■ المقامة الخامسة والأربعون	الرملية	هزلية
■ المقامة السادسة والأربعون	الحرامية	أدبية
■ الخمسون	البصرية	زهدية

كما نلمس شعرية التحول والإحماض في تصوير الحريري لبطله "أبو زيد السروجي" فثقافة هذا الأخير تجليها بعض المقامات على أنه شاعر كما في المقامة (الحلوانية) و(الدينارية) و(المالطية) و(النجرانية) و(الشتوية) و(الحلبية) و(الرقطاء)، كما أظهرته المقامات (الديمياطية) و(القهقرية) و(البكرية) و(الفراتية) و(المراغية) في صورة الأديب الناقد، بل حتى في سيرته نلمح مشاهد التحول والانتقال فهو واعظ زاهد كما في المقامة (الساوية) و(الرملية) ومشحوذ، ساحر. كما في المقامة (الدمشقية) والمقامة (العمانية)، كما أظهره في صورة الفقيه الملغز في (الطيبية) وصورة اللغوي المتمرس كما

في (المقامة القطيعية). فهو كثير التلون والتغير لأنه يمثل أنماطا إنسانية متعددة "فكاينه هو التغير"[1].

2. المستوى الأسلوبي: من عجائب إبداعه، وسحر بيانه أنه يحمض بالمتلقي من رقيق اللفظ إلى جزله، كما يتحول به من معتاص الكلام إلى سهله، حتى يشد (المتلقي) بحباله اللغوية، فلا يغادر ولا يترك مقاماته بل يبقى مشرئب العنق إليها... حتى ينهي المقامة البصرية، هذه الكفاءة الأسلوبية بلغ فيها درجة الإعجاز اللغوي على حد تعبير ياقوت الحموي "لو ادعى بها الإعجاز لما وجد من يدفع في صدره ولا يرد قوله"[2].

وهذه تجليات أسلوبية في مقاماته الأدبية، انتخبناها تأصيلاً وتأكيدًا على حضور شعرية التحول والإحماض الأسلوبي.

خص الحريري مقامتين -متباعدتين في الترتيب- برسالتين من رسائله الموشحة حروف إحدى كلماتها يعمها النقط (حروفها معجمة)، وحروف الأخرى لم يعجمن قط (مهملة لا نقط فيها)، الرسالة الأولى في المقامة السادسة (المراغية) والرسالة الثانية في المقامة السادسة والعشرين (الرقطاء)، الرسالة الأولى ناظر بها فرسان البراعة وأرباب البراعة من أهل المراغة.. فلما سمعوها أرضته الجماعة فعلا وقولا وأوسعته حفاوة وطولاً، ومما جاء فيها: "الكرم ثبت الله جسيش سُعُودِك يسزين، واللُّؤْمُ غَضَّ الدَّهْر جفن حسودِك يشين والأروع يثيب والمعوِرُ يخيب والحلائل يُضيف، والماحل يُخيف والسمح يغذي والمِحك يقذي، والعطاء ينجي والمطال يشجي والدعاء يقي، والمدح ينقي... ومؤملك شيخ حكاه في، ولم يبق له شيء، أملك بظن

---

[1]- عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة، ص 56.

[2]- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، الجزء السادس، ص 170.

حرصه يثيب، ومدحك ينخب مهورها تحب..."[1]. فسأله الوالي عن حاله وخصه بديوان إنشائه. والرسالة الثانية أنشأها على باب أميرطوس وسماها بالرسالة الرقطاء، وهي: "أخلاق سيدنا تحسب، وبعقوته يلبُّ، وقربه تحف ونأيه تلف، وخلته نسب، وقطيعته نصب... سيد قلّب، بسوق مُبر، فطن مغرب، غزوق عيوف، مخلف متلف..."[2] وما إن جاء على آخرها حتى لمح الأمير السر المودع فيها وأوعز في الحال بقضاء دينه، وفصل بينه وبين خصمه وجعله من أهل الفضل والتقديم.

المجرى الأسلوبي واحد في الرسالتين، لهذا باعد بينهما بعشرين مقامة حتى يذهب عن المتلقي الملل والسأم، كما أنه بنى الرسالتين على شعرية التحول والانتقال، في المقامة الأولى (المراغية)، يتحول وينتقل من كلمة معجمة الحروف إلى كلمة مهملة لا نقط فيها (المعور، يخيب/ الماحل يخيف) أما المقامة الرقطاء، فجعل رسالتها أحد حروفها منقوط والآخر غير منقوط، إنه التحول والانتقال من رسم إلى رسم، ومن سياق إلى سياق. حتى يحمض بالمتلقي... ويجعله أسيرًا لبلاغته وسحر صناعته، ولعل أبرز مظاهر النجاح في مستواه الأسلوبي، أن المتلقي الأول (والي المراغة) خصه بديوان الإنشاء، وهي المكانة التي لم يبلغها فرسان اليراعة وأرباب البراعة، كما أن الرسالة الرقطاء وقعت موقع القبول عند المتلقي الأول (أمير طوس) الذي لمح السر المودع فيها، فأمر بقضاء دينه وخصّه بفضله.

وفي المقامة السمرقندية والمقامة الواسطية، وإن انتقل من جنس الرسالة إلى أدب الخطابة إلا أنه بنى المقامتين على خطبتين بديعتي النظام عاريتين من الإعجام (خالية من النقط) جاء في الأولى قوله: "الحمد لله

---

[1]- الحريري، المقامات، ص52 .

[2]- المصدر نفسه، ص 208.

الممدوح الأسماء المحمود الآلاء، الواسع العطاء، المدعو لحسم اللأواء مالك الأمم، ومصور الرمم، وأهل السماح والكرم..."[1]، وصفها المتلقي الأول (الحارث بن همام) بأنها خطبة نخبة بلا سقط وعروسا بلا نقط، وجاءت الثانية على شاكلة الأولى: "الحمد لله الملك المحمود، المالك الودود، مصور كل مولود ومال كل مطرود، ساطع المهاد، وموطد الأوطاد، ومرسل الأمطار ومسهل الأوطار، عالم الأسرار..."[2].

مثل هذه الأساليب والألفاظ لم تكن مجرد ألاعيب لغوية تشبه الألاعيب النارية في المسارح البهلوانية، كما أراد أن يصورها بعض المتأخرين للأسف، لكنها أساليب بلاغية تغيّ بها الحريري الإحماض بالمتلقي حتى ينشطه ويزيده حيوية وهو يتلقى مقامات بنيت على معتاص الكلام، ولا ينبغي أن نتعجب فلكل عصر بيان ولكل دهر كلام، ولا أكون مبالغا إن قلت إن سبب شهرة مقامات الحريري وكثرة عشاقها، هو ما طعمها به من الإحماض وتحول من رقيق اللفظ إلى جزله، وانتقاله فيها من اللطائف الأدبية إلى الفتاوي اللغوية، ومن الرسائل المبتكرة إلى الخطب المحبرة بدليل أنها وصلت الأندلس والحريري مازال على قيد الحياة يروى أن وفدًا من علماء الأندلس، وفد على الحريري في بغداد، ومنهم: "الحسن بن علي البطليوسي والحجاج بن يوسف القضاعي، وأبو القاسم عيسى بن جهور، وقرأوا عليه بمنزله هذه المقامات ثم عادوا إلى بلادهم حيث تلقاها عنهم العلماء والأدباء وتناولوها رواية وحفظا ومدارسة وشرحا"[3].

---

[1]- المصدر نفسه، ص222 .

[2]- المصدر السابق، ص232 .

[3]- الشريشي، شرح مقامات الحريري، الجزء الأول، ص 05.

وأقصى درجات الإحماض الأسلوبي، الارتقاء بالمتلقي إلى ما لا يستحيل بالانعكاس (ملح الأدب وعيونه)؛ وهو ما لا يتحول ولا يتغير بالانعكاس كقولك "ساكب كاس"، ومن أعظم ما قال شعرًا[1]:

أُمْ أَرْمَلاَ إِذاَ عَـراَ وَارْعَ إِذاَ المَرْءُ أَسَـا

أَسْنِدْ أَخَا نَبَاهَـةٍ أَبِنْ إِخَاءً دَنَسَـا

أَسْلُ جَنَابَ غَاشِمٍ مُشَاغِبٍ إِنْ جَلَسَا

فعلق الراوي قائلا: "فلما سحرنا بآياته، وحسرنا ببعد غاياته مدجناه حتى استعفى ومنحناه إلى أن استكفى"، وفي المقامة (القهقرية) شنّف الأسماع برسالته الفريدة وأملوحته المفيدة: "الإنسان صنيعة الإحسان، ورب الجميل فعل الندب وشيمة الحر ذخيرة الحمد وكسب الشكر استثمار السعادة، وعنوان الكرم تباشير البشر واستعمال المداراة يوجب المصافاة واختيار الإخوان يتخفيف الأحزان، وامتحان العقلاء بمقارنة الجهلاء وتبصر العواقب يؤمن المعاطب واتقاء الشنعة ينشر السمعة، وقبح الجفاء ينافي الوفاء، وجوهر الأحرار عند الأسرار"[2]. وهي رسالة طويلة ضمنها مائتي لفظة كلّها مواعظ وعبر، وتسمى بالقهقرية لأنها تقرأ من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين، عبّر عنها بقوله: رسالة أرضها سماؤها وصبحها مساؤها نسجت على منوالين وتجلت في لونين.

هذه الشواهد تؤكد أننا أمام لاعب لغة يستميل بأساليبه قلوب الخاصة قبل العامة، كما أننا أمام أستاذ حصيف له قدراته البيداغوجية في تعليم الناشئة فنون القول ومعتاص الكلام. فحتى لا يملّ الطلبة من نصوصه -خاصة وأنه يشكو من أن الأدب ركدت ريحه وخبت مصابيحه- وشّح

---

[1]- الحريري، المقامات، ص132 .

[2]- المصدر السابق، ص139 .

مقاماته بملح الأدب ونوادره، وجعلها تحتوي على جد القول وهزله ورقيق اللفظ وجزله.

ومن تجليات الإحماض في مقاماته أنه ينتقل من مدح الشيء إلى ذمه في المقامة الواحدة، كمدحه للدينار ثم ذمه في المقامة (الدينارية)، فلما انتهى علق عليه الراوي بقوله: "ما أغزر وبلك"[1] أو كمدحه للبكر والثيب وذمهما في المقامة (البكرية)، مما جعل من استشاره في الزواج، يعرض عنهما معا ويختار الترهبن سبيلا: "فقلت له فهل ترى أن أترهب واسلك هذا المذهب..."[2] تأثرا بلغة وأساليب السروجي في الانتقال والتحول من مجرى إلى آخر. وكذلك المفاضلة بين الكتابتين (الإنشاء والحساب) وفصله في الخصام الدائر حول أيهما أفضل، ومَنْ مِنْ الكتاب أنبل (كاتب الإنشاء أم كاتب الحساب)، وجاء هذا المشهد في المقامة (الفراتية) "فأمتع الأسماع بما راق وراع"[3].

وهذه غاية الحريري من هذا التلوين والميل مرة إلى مدح هذا ومرة إلى ذمه حتى يحمض بالمتلقي، ويستميل سمعه وقلبه، فكان بحق أمير البلغاء وسراج الأدباء.

3. المستوى الأجناسي (قراءة في الأداة): الانفتاح النصي على مختلف الأجناس والأنواع الأدبية الجلّي في مقامات الحريري هو مؤسس على استراتيجية التحول من جنس إلى آخر. فبعض المقامات تنفتح على الخطابة وبعضها الآخر على الرسالة أو الوصية أو الألغاز...الخ كما أن التحول من جنس إلى جنس يحضر في المقامة الواحدة شأن المقامة المراغية أو

---

[1]- المصدر نفسه، ص32 .

[2]- المصدر نفسه، المقامة البكرية، ص355 .

[3]- المصدر نفسه، ص176 .

المقامة الساسانية وهو ما صرح به في خطابه المقدماتي: "أنشأت... خمسين مقامة تحتوي على جد القول وهزله، ورقيق اللفظ وجزله، وغُرر البيان ودرره، وملح الأدب ونوادره إلى ما وشحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات، ورصعته فيها من الأمثال العربية واللطائف الأدبية والأحاجي النحوية والفتاوي اللغوية والرسائل المبتكرة والخطب المحبرة والمواعظ المبكية والأضاحيك الملهية"[1].

فمقاماته مثقلة بغرر البيان وملح الأدب (الرسائل، الخطب، الأمثال، الألغاز...) ثم إن الغرض من حضور هذه الأجناس الأدبية في مقاماته الغرض منها هو الإحماض بالملتقى وتنشيطه ودفع الكلل عنه من جهة، ومقاومة التهديد الذي يتربص بشعلة الأدب من جهة أخرى ومن ثم اعتبرت مقاماته "أجمل تكريم منح إلى اللغة العربية"[2] وهو ما شهد به المطرزي (تـ 610هـ): "فإني لم أر في كتب العربية والأدب كتابا أحسن تأليفاً وأعجب تصنيفا وأغرب ترصيفا وأشمل للعجائب العربية وأجمع للغرائب الأدبية وأكثر تضمنا لأمثال العرب ونكت الأدب من المقامات"[3] بيد أن كثرة الاستشهادات فيها وتعدد الأمثال العربية واللطائف الأدبية لا يعني أنها مجرد كتاب جامع لفنون القول فمقامات الحريري تخضع إلى بنية سردية قوامها الخروج والتخفي وأخيرا التعرف، داخل هذه البنية تحضر النصوص والأجناس الأدبية. حضورًا لا يفقد المقامة خصوصيتها الاسمية كما لا ينبغي أن يفهم هذا الحضور على أنه تطعيم للمقامة العربية. فالنص المقامي له من الثراء ما يغنيه عن التطعيم بأجناس القول وأنواعه. فالمقامة تشبه الإسفنجة

---

[1]- المصدر السابق، ص12 .

[2]- عبد الفتاح كيليطو، المقامات، ص 56.

[3]- المطرزي، شرح مقامات الحريري، ص58، نقلا عن كتاب المقامات لعبد الفتاح كيليطو، ص167.

التي تمتص مختلف المواد والسوائل المحيطة بها ومع ذلك تبقى محافظة على اسمها وخصائصها.

ولتأصيل هذا التصور قمين بنا أن نتتبع مقامات الحريري بغية ملامسة الإحماض الأجناسي شعرية التحول الأجناسي في المقامتين (السماوية) والسمرقندية تتأكد من خلال احتواء البنية السردية للمقامة لجنس الخطابة. فبعد الاستهلال المقامي وخروج الراوي (الحارث) بن همام إلى بلدة (ساوة)، ولما رأى جمعا على قبر يحفر، ومجنوز يقبر سمع إلى خطبة جليلة تقشعر لها الأبدان، بدأها السروجي بقوله: "لمثل هذا فليعمل العاملون فاذكروا أيها الغافلون وشمّروا أيها المقصرون وأحسنوا النظر أيها المتبصرون، ما لكم لا يحزنكم دفن لأتراب، ولا يهولكم هيل التراب، ولا تعبأون بنوازل الأحداث، ولا تستعدون لنزول الأجداث...".

ولما انتهى من وعظه احتلب الملا الذي كان من حوله حتى أنزع كُمه وملا ثم انحدر من الربوة حذلاً بالحبوة، وبعد (ست عشرة مقامة) عاد إلى الخطابة من خلال انفتاح المقامة (السمرقندية) على خطبة "نخبة بلا سقط وعروسا بغير نُقط" كما وصفها المتلقي الأول "الحارث" بن همام، وكانت خطبة تامة العناصر من الحمد والثناء إلى الوعظ والإرشاد وانتهاء بالدعاء والاستغفار. إلاّ أن المقاطع الخطابية الوعظية في المقامتين أصابها التشويش فكان الوعظ مغشوشا. أيّ تحول الوعظ إلى أحبولة ومصيدة.

فالمتلقي لأول مرة هذه المقامات لاشك أنه يصاب بخيبة انتظار لما احتوته من عدول وانزياح، فالحارث بن همام بعدما سمع مبكيات السروجي وتأثر بها لحقه إلى داره "وحين انتشر جناح الظلام، وحان ميقات المنام،

أحضر أباريق المدام.. فقلت أتحسوها أمام النوم وأنت إمام القوم، فقال مه أنا بالنهار خطيب، وبالليل أطيب"[1].

أما (المقامة الساسانية) هي تفصح عن التفاعل الأجناسي، بانفتاحها على أدب الوصايا، فقد تضمنت وصية طويلة عدها "آل ساسان" أفضل من وصايا لقمان وحفظوها كما تحفظ السورة من القرآن، ومما جاء فيها "يا بني إني جربت حقائق الأمور، وبلوت تصاريف الظهور فرأيت المرء بنشبه لا بنسبه... ولم أر ما هو بارد المغنم لذيذ المطعم وافي المكسب صافي المشرب إلاّ الحرفة التي وضع ساسان أساسها، ونوع أجناسها.. فهي المتبحر الذي لا يبور..."[2] ولم يقصر إحماض الحريري بالمتلقي في هذه المقامة بإحضاره لأدب الوصية، بل نشهد تحولاً وتناغما بديعيين بين أربعة أجناس أدبية هي: المقامة، الوصية، القصة، الشعر.

والمقامة المراغية كذلك بنيت على استراتيجية التحول والانتقال بالمتلقي من الرسائل المحبرة إلى الأشعار المبتكرة إلى الأمثال العربية المحكمة، قصد تنشيط القارئ واستمالته وجعله يتعلق بمقامات الحريري.

في حين نجدهُ في بعض المقامات خرج من دائرة الإحماض والانفتاح على الأجناس الأدبية المطولة، إلى قصار الأنواع الأدبية (الألغاز اللغوية والألغاز الفقهية) التي أعجز بها سراة القوم وحماة الأدب. وانتشرت هذه الألغاز في:

المقامة الخامسة عشرة (الفرضية)، المقامة التاسعة عشرة (النصيبية)، المقامة الرابعة والعشرون (القطيعية أو النحوية)، المقامة الثانية والثلاثون

---

[1]- الحريري، المقامات، ص226 .

[2]- المصدر نفسه، ص405 .

(الطبيبة)، والمقامة السادسة والثلاثون (الملطية)، والمقامة الثانية والأربعون (النجرانية)، والمقامة الرابعة والأربعون (الشتوية).

الملاحظ أن الألغاز انتشرت في سبع مقامات هذه المقامات لو جعلها الحريري متتابعة لانتفضت عري شعرية التحول، فالحرص على الإحماض بالمتلقي هو الذي جعله يوزعها توزيعا بديعا، بحيث لو قسمنا المقامات الخمسين إلى مجموعات كل مجموعة مشكلة من عشر مقامات لوجدنا في كل مجموعة تحضر الألغاز مرتين، إلاّ في المجموعة الثانية حضرت مرة واحدة، كما نسجل غياب الألغاز في المجموعة الأولى، ونعتقد أن سبب الغياب أن المتلقي ما زالت لم تفتر عزائمه بعد وهو يقرأ مقامات الحريري، لأنه في هذه المجموعة حاله كحال من يكتشف صندوقا سحريا، ولهذا بدأ الإحماض عبر بوابة الألغاز في منتصف المجموعة الثانية أي في (المقامة الخامسة عشرة). كما أنه نوّع في ألغازه فمرة نجدها ألغازا فقهية كما في المقامة (الطبيبة)، ومرة ألغازًا نحوية كما في المقامة القطيعية، فكانت ألغازه "ذات مماثلة حقيقية وألفاظ معنوية ولطيفة أدبية"[1].

بقي أن نشير إلى أن الإحماض الأجناسي، الذي تغيّاه الحريري، وانفتاح مقاماته على الكلام المنظوم والكلام المنثور (الخطب، الوصايا، القصص، الأخبار، الرسائل، الألغاز الأمثال)، أوقع الدارسين في إشكال حقيقي وهم يبحثون في جنسية المقامة، وأين تتموقع أجناسيا؟ فلم يستطع أيّ منهم أن يفك الشفرة الأجناسية للنص المقامي، شأن عبد الفتاح كيليطو الذي عدّها زهرة برية لا يدري متى وكيف تفتحت، أو "حمادي صمود" الذي رآها بدعة فنية نسجت على غير منوال، أو بعض المتعجلين الذين رأوا في مقاماته مجرد ألاعيب لغوية تشبه الألاعيب النارية.

---

[1]- المصدر السابق، ص195 .

فالمقامة ورغم أنها نص عصيّ على التصنيف إلاّ أننا نقول إنها إطار فني لكشف عيوب المجتمع، وثورة على فساد الساسة وتلون رجال الدين وبكاء مرير على ضياع الأدب الذي ركدت ريحه وخبست مصابيحه وهو ما يدعونا إلى التصالح مع المقامة العربية، وتصحيح تصوراتنا نحو هذا الفن، ومعاودة قراءة الحريري قراءة معاصرة شريطة مراعاة الأنساق الثقافية والاجتماعية التي احتضنتها.

خاتمـــــــة:

ونخلـص في ختـام مقالنـا هـذا إلى التأكيـد علـى أن التراتبيـة الـتي اتبعهـا الحريـري في بنـاء مقاماتـه لم تكـن عشـوائية بـل جعلهـا مؤسسـة علـى اسـتراتيجية كتابيـة لخصـها في مصـطلح واحـد هـو الإحمـاض فكـان يتحـول في مقاماتـه مـن رقيـق اللفـظ إلى جزلـه، ومـن اللطـائف الأدبيـة إلى الأحـاجي النحويـة، ومـن الرسـائل المبتكـرة إلى الخطـب المحـبرة، ومـن المـواعظ المبكيـة إلى المواقـف المسـلية حـتى ينشـط قـارئ مقاماتـه... كمـا تنشـط الإبـل عنـدما تنتقـل مـن مرعـى نبـات حلـو إلى مرعـى نبـات حـامض، فكسـب بهـذه الاسـتراتيجية الكتابيـة مكانـة عاليـة. حـتى قـال عنـه الشريشـي "لم يبـق في البلاغـة متعقبـا، ولا للريـادة مترقبـا، ولاسـيما في المقامـات الـتي ابتـدعها، والحكايـات الـتي نوعهـا وفرعهـا والملـح الـتي وشـحها بـدرر الفقـر ورصـعها، فإنـه بـرز فيهـا سـابقا وبـزّ البلغـاء فائقـا، وأتـى بـالمعنى الـدقيق للفـظ الرقيـق مطابقـا وخلـدها تاجـا علـى هامـة الأدب وتقصـارًا في جيـد لغـة العـرب"[1] نعـم فقـد كـان إذا أنشـأ وشـى، وإذا عـبّر حـبر وإذا أسـهب أذهـب، وإذا أوجـز أعجـز فحـتى لـو أدعـى بها الإعجاز اللّغوي لما وجد من يرد قوله.

بقـي أن نشـير في الأخـير إشـارة نؤكـد بهـا مقصـدية هـذه التراتبيـة فـالحريري،

- جعـل المقامـة الأولى المقامـة الصـنعانية مـع العلـم أن صـنعاء هـي أول بلـدة صـنعت بعـد الطوفـان، وجعـل المقامـة الأخـيرة المقامـة البصـرية وتضـمنت التوبـة النصـوح لأبي زيـد الـذي لـبس الصـوف ولـزم الصـفوف في المقامـة الأولى اللقـاء الأول والتعـارف بـين الـراوي "الحـارث بـن همـام" والبطـل "أبـو زيـد السـروجي" وفي المقامـة الأخـيرة الفـراق النهـائي والتوبـة الصـدوق، والإنابـة والرجـوع النهـائي إلى "سـروج" بعـدما غادرهـا "العلوج". مما يؤكد أن ترتيب المقامات كانت تتحكم فيه استراتيجية الإحماض.

---

[1]- الشريشي، شرح مقامات الحريري، الجزء الأول، ص05.